

تفسير البحر المحيط

@ 225 @ مصاحف المدينة والشام ، وكلتا القراءتين متواترة . فمن أثبت هو ، فقال أبو علي الفارسي : يحسن أن يكون فصلاً ، قال : ولا يحسن أن يكون ابتداء ، لأن حذف الابتداء غير سائغ . انتهى . يعني أنه في القراءة الأخرى حذف ، ولو كان مبتدأ لم يجر حذفه ، لأنك إذا قلت : إن زيداً هو الفاضل ، فأعربت هو مبتدأ ، لم يجر حذفه ، لأن ما بعده من قولك الفاضل صالح أن يكون خبراً لأن ، فلا يبقى دليل على حذف هو الرابط . ونظيره : { الَّذِينَ هُمْ يُرْءُونَ } ، لا يجوز حذف هم ، لأن ما بعده يصلح أن يكون صلة ، فلا يبقى دليل على المحذوف . وما ذهب إليه أبو علي ليس بشيء ، لأنه بنى ذلك على توافق القراءتين وتركيب إحداهما على الأخرى ، وليس كذلك . ألا ترى أنه يكون قراءتان في لفظ واحد ، ولكل منهما توجيه يخالف الآخر ، كقراءة من قرأ : { وَاللَّاهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ } بضم التاء ، والقراءة الأخرى : { بِمَا وَضَعْتَ } بتاء التانيث فضم التاء يقتضي أن الجملة من كلام أم مريم ، وتاء التانيث تقتضي أنها من كلام الله تعالى ، وهذا كثير في القراءات المتواترة . فكذاك هذا يجوز أن يكون هو مبتدأ في قراءة من أثبتته ، وإن كان لم يرد في القراءة الأخرى ، ولكل من التركيبين في الإعراب حكم يخصه .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ } : الظاهر أن الرسل هنا هم من بني آدم ، والبينات : الحجج والمعجزات . { وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ } : الكتاب اسم جنس ، ومعهم حال مقدره ، أي وأنزلنا الكتاب صائراً معهم ، أي مقدراً صحبته لهم ، لأن الرسل منزلين هم والكتاب . ولما أشكل لفظ معهم على الزمخشري ، فسر الرسل بغير ما فسرناه ، فقال : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا } ، يعني : الملائكة ، إلى الأنبياء بالحجج والمعجزات ، { وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ } : أي الوحي ، { وَالْمِيزَانَ } . وروي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان ، فدفعه إلى نوح وقال : مر قومك يزنوا به . { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ } ، قيل : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد السندان والكلبتان والميعة والمطرقة والإبرة . وروي : ومعه المسن والمسحاة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم (أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، أنزل الحديد والنار والماء والملح . انتهى . وأكثر المتأولين على أن المراد بالميزان : العدل ، فقال ابن زيد وغيره : أراد بالموازنين : المعرفة بين الناس ، وهذا جزء من العدل . { لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } : الظاهر أنه علة لإنزال الميزان فقط ، ويجوز أن يكون علة لإنزال الكتاب والميزان معاً ، لأن القسط هو العدل في جميع

الأشياء من سائر التكاليف ، فإنه لا جور في شيء منها ، ولذلك جاء : { شَهْدَ اللَّاهُ
أَنْزَلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ } . .

{ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ } : عبر عن إيجاده بالإنزال ، كما قال : { وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ
مِّنَ السَّمَاءِ حَلَقًا مِّن ذُرِّيَّتِكُمْ وَمِنَ الْإِنجِيلِ الْإِنجِيلَ وَمِنَ التَّوْرَةِ الْإِنشَارَ وَمِنَ الْفُرْقَانِ الْفُرْقَانَ } .
وأيضاً فإن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تلقى من السماء
، جعل الكل نزولاً منها ، قاله ابن عطية . وقال الجمهور : أراد بالحديد جنسه من المعادن
 . وقال ابن عباس : نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميعة . { فِيهِ بِأَسْ
شَدِيدٍ } : أي السلاح الذي يباشر به القتال ، { وَمَنْزَاةٍ لِّلنَّاسِ } : في مصالحهم
ومعايشهم وصنائعهم ؛ فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها . { وَلِيَعْلَمَ اللَّاهُ
لِإِنزَالِ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ } . { مَنْ يَنْصُرْهُ } وَرُسُلَاهُ { بِالْحُجِّ وَالْبِرِّ }
المنتزعة من الكتاب المنزل ، وبإقامة العدل ، وبما يعمل من آلة الحرب للجهاد في سبيل
العدل . قال ابن عطية : أي ليعلمه موجوداً ، فالتغير ليس في علم الله ، بل في هذا الحدث
الذي خرج من العدم إلى الوجود . وقوله : { بِالْقِسْطِ } معناه : بما سمع من الأوصاف
الغائبة عنه ، فأمن بها لقيام الأدلة عليها .

ولما قال تعالى : { مَنْ يَنْصُرْهُ } وَرُسُلَاهُ { ، ذكر تعالى أنه غني عن نصرته بقدرته
وعزته ، وأنه إنما كلفهم الجهاد لمنفعة أنفسهم ، وتحصيل ما يترتب لهم من الثواب . وقال
ابن عطية : ويترتب معنى الآية بأن الله تعالى أخبر بأنه أرسل رسوله ، وأنزل كتاباً وعدلاً
مشروعاً ، وسلاحاً يحارب به من عاند ولم يهتد بهدي الله ، فلم يبق عذر . وفي الآية ، على
هذا التأويل ، حث على القتال . .

قوله عز وجل : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي
ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّسْتَدِرٌّ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَنْ آدَمَ إِثْرَهُمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا